جذور القصّة العربيّة القصيرة جدّا في الوطن العربي

د: بومكحلة جيلالي

جامعة بلحاج بوشعيب عين تموشنت

Boumokahla.djillali@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2020/09/14 - تاريخ القبول: 2021/03/07 - تاريخ النشر: 29 /2021/03.

الملخّص:

تعدّ قضية جذور القصّة القصيرة جدّا في الوطن العربي من أبرز القضايا النّقدية الّتي تطرّق إليها النّقاد العرب وكانت محلّ اختلاف وجهات نظرهم.

حاولنا في هذا المقال أن نناقش أهمّ أراء النّقّاد العرب وأبرزها، وقد اجتهدنا في جمعها في أربعة مواقفّ مختلفةٍ. فهل تعود جذور القصّة القصيرة جدّا إلى تراثنا العربيّ، أم استمدّها العرب من الغرب، أم يوجد أراء أخرى؟

حاولنا أن نعتمد في بحثنا هذا على المنهج الوصفي التّحليلي. وبعد البحث وصلنا إلى النّتائج الآتية:

- اختلف النّقاد العرب حول جذور القصّة العربية القصيرة جدّا. منهم من أرجع أصولها إلى تراثنا القديم، ومنهم من ربط ظهورها بالغرب، ورأي توسط الرّأيين السّابقين، ورأي آخر ربط ظهورها بالقصّة العربيّة القصيرة.
- إنّ للقصّة القصيرة جدّا جذورا في سردنا القديم سواء أكان ذلك في القرآن الكريم أم في الحديث النبويّ الشّريف أو فيما كتبه المبدع العربيّ من سرد قصير جدّا بمختلف أنواعه.

الكلمات المفتاحية: القصة القصيرة جدا؛ جذور؛ التراث؛ الغرب؛ السرد العربي.

Abstract.

The issue of the short short story in the Arab world is one of the most prominent critical issues. It was the subject of divergent viewpoints.

In this article, I tried to discuss the most important and prominent views of Arab critics. We tried to collect them in four different situations. So, does the roots of the short story go back to our Arab heritage, o did the Arabs derive it from the West, or are there other opinions?

To clarify this issue, I follow the descriptive and analytical method.

I realised that the difference between the Arab critics is a fact, they disagreed about the roots of the Arabic shirt story, some of them traced its origins to our ancient heritage and others linked its appearance to the West, and the last tendence opt for and middle ground which join all the opinion mentioned before.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

We realised also that the short short story has roots in our old narrative, whether it is in the NOBLE Quran, in the noble prophet´s hadith, or in what the Arab innovator wrote, so we find various kinds of short narration.

Keywords: short short story, Arab critics, roots , ancient heritage.

جذور القصّة العربيّة القصيرة جدّا في الوطن العربي

اختلف النّقّاد العرب حول أصول القصّة القصيرة جدّا:

أ. قوم حاولوا ربط القصّة القصيرة جدّا عندنا بالتّراث العربيّ القديم، ويمثّلهم يوسف حطّيني.

ب. مجموعة أخرى من الباحثين، رأوا أنّ ظهور القصّة القصيرة جدّا لا علاقة له بالسّرد العربيّ القديم لا من قريب ولا من بعيد. وإنّما هي ذات أصول غربيّة بامتياز، ويتزعّم أولئك النّاقدان محمد رمصيص ومحمد يوب.

ج. رأي توسّط الرّأيين السّاقين، يحرص على الجمع بين التّأثّر الغربيّ وبين التّأسيس من خلال السّرد العربيّ القديم. وعلى رأسهم جاسم خلف إلياس وجميل حمداوي.

د. موقف ينفي استيراد القصّة القصيرة جدّا العربيّة من الغرب، كما ينفي عنها اتّكاءها على التّراث القصصيّ القديم، وإنّما يقول بأنّها تطوّرت من القصّة القصيرة العربيّة، ريادة هذا الرأي لأحمد جاسم الحسين.

وقبل التّطرق إلى المواقف الأربعة بشيء من التّفصيل، لا بدّ لنا من أن نشير إلى أنّ الحديث عن جذور القصّة القصيرة جدّا عند العرب، لا نعني به البحث عن الرّيّادة لمن، هل هي للعرب أم للغرب؟ فذلك شأن آخر. وإنّما القصد منه هو البحث عن مصدر القصّة القصيرة جدّا عند العرب، وذلك ما تمثّله المواقف الأربعة السّابقة. لأنّه قد تكون الرّيّادة للغرب ولكنّ العرب ربّما في تأسيسهم لجنس القصّة القصيرة جدّا لم يلتفتوا إلى ذلك. وسنتناول بشيء من التفصيل المواقفَ السّابقة.

الموقف الأول:

حاول متبنو هذا الموقف أن يدافعوا وبقوة، عن علاقة القصّة القصيرة جدّا بالسّرد العربيّ القديم، ولم يكتفوا بذلك فحسب، بل نَفَوْا أن تكون قد استفادت في تأسيسها من السّرد الغربيّ.

يقول يوسف حطيني في هذا المضمار: "وتعتزّ القصّة القصيرة جدّا بأنّ لها أصولا في الأدب القديم. وقد جاءت هذه الأصول على شكل حكايات"(1)، وهو طبعا يقصد ما حواه سردنا القديم من أخبارٍ ونوادرَ وطرائفَ وحكاياتٍ وغيرها.

إلى هنا الأمر عادي، وهو أن تكون القصّة القصيرة جدّا العربية قد استفادت من التّراث، ولكن ما قد يدفع النّقّاد إلى رفض رأيه هو قوله: "إن القصّة القصيرة جدّا،بوصفها نوعا أدبيّا له أركانه وتقنياته، لا يعيبها أن تكون متأثرة بأيّ أدب عالميّ، ولكنّ واقع الحال يبعد هذا الاحتمال من وجهين:

- الأوّل وجودها فعلا في تراثنا العربيّ الغنيّ بأشكال مختلفة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- الثّاني وجود سرد عربيّ متميّز حديث صالح لأن يتطوّر وينتج أشكالا سرديّة جديدة"(2).

ما يستدعي التّحفظ - في رأينا- على موقف يوسف حطّيني هو قوله: (وجودها فعلا في تراثنا العربي)، وهذا فيه كثير من الحماسة للتّراث. لأنّنا لا نعتقد أن تكون الطّرفة مثلا أو النّادرة أو حتى الخبر، قصصا قصيرة جدّا بالمفهوم الحديث؛ وإنّما نعترف بأنّ تلك الأشكال السّردية القديمة وغيرها، قد حملت بعض ملامح القصّة القصيرة جدّا. وهو نفسه يستدرك بقوله: "وعلى الرّغم ممّا تقدّم،فإنّه من المناسب التّمييز بين الحكاية القصيرة جدّا الّتي يكثر وجودها في التّراث، والقصّة القصيرة جدّا،تلك القصّة الّتي تطوّرت في الوطن العربيّ.

ولذلك نرى أنّه كان من الأفضل ليوسف حطّيني - إذا تحدّث عن التّراث العربي- أن يكتفي فقط بقوله بوجود سرد قصير جدّا أو حكايات قصيرة جدّا، وهو القائل:"فالحكاية التّراثية كانت تكتفي في معظم الأحيان بالجانبين الحكائي والوعظي. أمّا القصّة القصيرة الحديثة فقد تخلّصت في نماذجها الجيّدة من الوعظية واهتمّت باستثمار إنجازات التّطوّر السّردي. بمعنى أن السّرد القديم كان مهتمّا بالجانب الإخباريّ، بينما اهتم السّرد الحديث بالجانبين الإخباري والجمالي في آن"(3).

على الرّغم من تحفّظنا السّابق على الجزئية الأخيرة، فإنّا نرى في رأي النّاقد يوسف حطّيني كثيرا من الموضوعية. لأنّه من الممكن أن تكون القصّة العربية القصيرة جدّا قد انبثقت من سردنا العربيّ القديم وليس لها علاقة بالغرب الّذي أصبح دائما يتبنّى كل إنتاج عربي مهما كان نوعه.

الموقف الثاني:

يرى روّاد هذا الرّأي أنّ القصّة القصيرة جدّا قد وفدت إلينا من بوّابة الغرب، نافين عنها أن تكون قد تأثّرت في تأسيسها بالسّرد العربيّ القديم.

فيقول محمد رمصيص: "في سياق الحديث عن تاريخ نشأة القصّة الومضة لابدّ من الإشارة إلى أنّها غربيّة المنشأ"(4). ويقول أيضا: "إنّ القول بالأصل العربيّ لنشأة القصّة الومضة موقف نكوصي يترجم ردّ فعل ضدّ الغرب كخصم."(5).

ما يمكننا التّحفّظ عليه من كلام النّاقد هو أوّلا: عندما يرجع هذا النّاقد نشأة القصّة القصيرة جدّا إلى الأصل الغربيّ، وهو يقصد قصص الكواتيمالي أوجستو مونتروسو سنة1959، أو أرنست هيمنغواي 1225 أو انفعالات نتالي 1932. فإنّ ذلك لا يبعد احتمال تأثير السّرد العربيّ القديم.

أوّلا: يجب أن لا ينسينا السّبق الغربيّ أمرا مهمّا،وهو أنّ الغرب في كثير من الأحيان، وإن سبقونا فإنّهم قد يستعينون بالتّراث العربيّ القديم. "ولقد ساهم أصحاب التّغريب في التّأصيل مساهمة فعّالة عندما ذهبوا إلى الغرب ووجدوا أنّه يستخدم تراثهم أكثر مما يستخدمونه ويوطّن معطياته أكثر ممّا وظفوها. فعادوا بنظرة جديدة إلى تراثنا بعد فترة من الانبهار بالغرب"(6)

نريد أن نقول إذن، وإن سلّمنا بأنّ الغرب قد سبقنا إلى القصّة القصيرة جدّا، فهذا لا يبعد عنه احتمال أن يكون تأثّر بما لدينا من سرد قصير جدّا في تراثنا القديم.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثانيا: نعتقد أنّ الأسبقيّة الغربيّة لا تبعد إمكانية النّشأة العربيّة للقصّة القصيرة جدّا في الغرب. بمعنى أنّنا قد نعترف بأنّ الغرب سبقنا إلى القصّة القصيرة جدّا، ولكنّه في الوقت نفسه نقبل باحتمال نشوئها عند العرب بعيدا عن التّأثير الغربيّ، وخاصّة إذا علمنا أنّ ظهورها في الثّقافتين كان متقاربا زمنيّا. بل إنّ ترجمة (انفعالات) كان في 1971، وهذا الوقت يُعدّ متأخّرا جدّا عن ظهور القصّة القصيرة جدّا عند العرب.

الأمر الآخر الّذي يُحسب على كلام محمد رمصيص هو اتّهامه لدعاة تأصيل القصّة القصيرة جدّا بأنّ لا حجّة لهم سوى نزعتهم الإيديولوجيّة للغرب باعتباره كخصم، وهنا نخالف الباحث لأنّ دعاة التّأصيل قد قدّموا أدلّتهم. وبعيدا عن اقتناعنا من عدمه وجب على الجميع احترام رأيهم.

واللّوم نفسه نوجّهه للنّاقد محمّد يوب عندما يتحدّث عن دعاة التّأصيل بقوله: "يبدو أنّ هذا الطّرح متأثّر بالتّفسير النّقديّ ذي المرجعيّة السّلفيّة الّتي تجد عزاءها في التراث العربيّ القديم"(7).

وللأمانة فقط، فإنّنا لا نتّهم النّاقدين في ثقافتهما الشّخصية، ولا يمكننا البتّة أن نربط بين رأيهما وبين توجّهما الإيديولوجي. وخير دليل على ما نقول هو تصريح محمّد يوب بقوله: "وشخصيا وبالرّغم من أنّني من المعجبين بالتّراث القديم، وعلى وعي بأهمّيته، وأحيانا أكاد مناصرا للأصولية..."(8). وعلى الرّغم من ذلك فإنّنا نعترف بنوع من القسوة من قبل النّاقدَين ضدّ التّأصيل.

ثم إنّ محمّد يوب قدّم من الأدلّة الّتي تمنع عن القصّة القصيرة جدّا تأصيلها ولكنّه لم يُقنع. فقوله: "غير أنّه الدّراسات النّقديّة أكّدت أنّ (السّرد القصصيّ) بمفهومه الحديث لا وجود له في التراث العربي"(9). وهذا الكلام قد يحتاج إلى كثير من النّقاش، وقد يحتمل القبول كما أنّه قد يحتمل الرّدّ. لأنّنا وجدنا دراسة لعبد الملك مرتاض حول المقامة، خلص فيها إلى أنّ المقامة عند بديع الزّمان هي قصّة بالمفهوم الفنّيّ الحديث. حيث قال في خاتمة كتابه: "خلصنا إلى الفصل الأخير من الباب الثّالث. فخصّصناه لدراسة منهجيّة أن تضع النّصوص المقامية أمام المقوّمات الّتي تتألّف منها القصّة الفنّيّة. ثمّ نبحث فيما إذا كانت تتوفّر المقامة: مقامة البديع خاصّة،على بعض هذه المقوّمات أو كلّها،فوجدنا حظّها من ذلك وفيرا عاليا، وقد ألفيناها تشمل على العناصر أو المقوّمات القصصيّة التالية وهي الرّئيسة:1.الحبكة 2.الشخصيات 3.العقدة"(10). أو قوله في موضع آخر: "وإذا كان الباحثون إلى اليوم لم يجمعوا على قصصيّة المقامة، بالمعنى الفنّيّ، فلأنّ هذا الموضوع لم ينل من الدّراسة المعمّقة المنهجيّة ما هو جدير به. ومع ذلك فقد ألفينا كثيرا من الباحثين يميلون إلى قصصيّة المقامة، إذ كانت هذه المقامات كثيرا ما تشمل على أهمّ مقوّمات القصّة القصيرة جدّا من أبطال أو شخصيات،وحوادث،وعقدة وزمان ومكان. كما نجد ذلك في كثير من مقامات البديع"(11).

أردنا من هذا الاستدلال أن نبرهن على أنّه أحيانا قد يبدو السّرد العربي القديم بعيدا كلّ البعد عن السّرد الحديث، ولكنّه بقليل من البصيرة نكتشف عكس ذلك، وهذا ما وصل إليه عبد الملك مرتاض في حديثه السّابق حول الرّواية والمقامة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أمّا قول محمّد يوب: "لا أثر للقصّة القصيرة جدّا في التّراث العربيّ القديم؛ وما يوجد فيه من أشباهها لا يمتّ بصلة للقصّة القصيرة جدّا"(12). ففيه كثير من التّجنّي على التّراث السّرديّ القديم، فإذا قبلنا الشّطر الأوّل من كلامه الّذي ينفي وجود القصّة القصيرة جدّا من التّراث العربيّ القديم بشرط إن كان قصده القصّة القصيرة جدّا بمفهومها الحديث فإنّ ذلك لا ينفي أن تكون القصّة القصيرة جدّا قد نهلت من معين السّرد العربيّ القديم. فإنّنا لا نوافقه على ما جاء في الشّطر الأخر من كلامه، وهو نفيه التّام لصلة القصّة القصيرة جدّا بالموروث السّردي القصير جدّا كالخبر والنّادرة والطّرفة وغيرها. لأنّه لا يخفى على أحد ذلك التّقاطع الكبير بين ما أنتجه العرب في الزّمنين المختلفين.

من بين الأدلّة الّتي قدّمها أيضا: "أنّ السّردية العربيّة لا تعرف مصطلح (السّرد القصصيّ) بالمعنى الحديث وإنّما عرفت مصطلحا آخر هو (قصّ). وهذا طبعا لا ينفي قضية التّأصيل، فلا يمكننا أن نتغاضى ونتجاهل جنسا ما بحجّة عدم تجنيسه. وقد وجدنا كثيرا من النّقّاد يعترفون بالرّيّادة لكتّاب في القصّة القصيرة جدّا وهم لم يدوّنوا عليها هذا المصطلح، فليس بدعا إذن، أن نتأثّر بالموروث القصصيّ القديم سواء أَسُمِّيَ(سردا قصصيّا) أم سُمِّيَ(قصّا).

ثم خلص في الأخير إلى القول بأنّ القصّة القصيرة جدّا بالخصوص وبمفهومها المعاصر قد ظهرت في أوربّا بعد الحرب العالميّة الثّانية ثم انتقلت إلى الوطن العربيّ بفضل تلاقح الثّقافات واطّلاع العرب على الثّقافة الأوربيّة(13). معنى ذلك أنّها ظهرت في أوربّا بعد 1945. وإن كنّا لا نوافقه على تاريخ ظهورها في أوربّا، فإنّ ذلك يؤول بنا إلى الاعتقاد أنّ الرّيَادة ستكون عربيّة باعتبار أنّ بعض النّماذج القصصيّة القصيرة جدّا عند العرب قد ظهرت قبل هذا التّاريخ، إلّا إذا كان هذا النّاقد من الّذين يعدّون رصيد القصّة القصيرة جدّا في الوطن العربيّ يبدأ بعد 1971 تاريخ ترجمة (انفعالات).

نخلص في الأخير إلى أنّنا غير ناقمين على دعاة تغريب القصّة القصيرة جدّا من أنّها فنّ مستورد؛ فلهم رأيهم ونحترمه،شرط أن لا ينفوا وجود سرد قصير جدّا في تراثنا العربيّ القديم قد يتقاطع في كثير من جوانبه مع القصّة القصيرة جدّا في الوطن العربيّ.

الموقف الثالث:

حاول متصدرو هذا الموقف أن لا ينفوا صلة القصّة القصيرة جدّا بالتّراث، كما أنّهم أيضا أقرّوا بتأثّرها بما أنتجه الغرب سواء كان في أمريكا اللاّتينية أو إسبانيا أو فرنسا.

إنّنا قد رأينا أنّ جاسم خلف إلياس قد تبنّى هذا الرّأي، وهو أنّ للقصّة القصيرة جدّا منبعان، المنبع الغربيّ والموروث العربيّ القديم.ولقد ألفيناه يدافع عن هذا الرّأي بكل ما أوتي من علم. خاصة فيما تعلّق بكون القصّة القصيرة جدّا سرد"له أصول يتّكئ عليها ويستمدّ وجوده منها كالنّادرة والطّرفة والخبر والأسطورة والخرافة والحكمة والمثل والحكاية الشّعبيّة والمقامة"(14).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ووصل إلى بعض النّتائج، منها مثلا أنّ"الخبر يشكّل النّواة الأولى لكتابة القصّة القصيرة جدّا"(15). وقوله عن النّادرة:"يمكننا قراءة هذا النّوع السّردي وكأنّه قصّة قصيرة جدّا"(16). وأنّ الأسطورة: "هي عمليّة خلق وإبداع أدبيّ،إنسانيّ تلتقي بالقصّة القصيرة جدّا لأنّها لا تستطيع صياغة خطابها بعيدا عن الرّموز والمجازات الّتي تصوغ وفاءها الفعّال لإنسانيتها من خلال التّعبير عن المشاكل الشّمولية الّتي تحيط بالإنسان بدءا من خلقه وحتى بعثه من جديد"(17).

فالقصّة القصيرة جدّا عند خلف إلياس لها جذور عربيّة أصيلة فضلا عن تأثّرها بالقصّة الغربيّة، فقد" أقرّ لها التأثّر في القصّة الأوربيّة الفرنسيّة بخاصّة فضلا عن التّأسيس لها من الجذور العربيّة"(18). وفي موقفه هذا كثير من الموضوعية أيضا.

أما جميل حمداوي، فإنّه يقول في هذا الصّدد: "إلّا أنّ بداية القصّة القصيرة جدّا قد تكون عربيّة من حيث الأصول والجذور،فكثير من إرهاصات القصّة القصيرة جدّا موجودة في تراثنا العربيّ"(19).

ويؤكّد كلامه في موقع آخر بقوله: "ويعني هذا أنّ للقصّة القصيرة جدّا جذورا عربيّة قديمة، تتمثّل في السّور القرآنيّة القصيرة، والأحاديث النّبويّة الشّريفة، وأخبار البخلاء واللّصوص والمغفلين والحمقى، وأحاديث السّمار...ومن ثمّ، يمكن اعتبار الفنّ الجديد امتدادا للنّادرة، والخبر، والنّكتة، والقصّة، والحكاية، واللّغز، والشّعر، والأرجوزة، والخطبة والخرافة، وقصّة الحيوان، والمثل..."(20.)

يبدو أنّ حديث هذا النّاقد عن الأصول العربيّة للقصّة القصيرة جدّا لا يجعله ينفي تأثّرها بالسّرد الغربيّ حيث يصرّح بذلك في قوله: "لكن تطورها الحديث مرتبط بشكل من الأشكال بتطوّر القصّة القصيرة جدّا في أمريكا اللّاتينية في مرحلة مبكّرة"(21). وفي كلام هذا النّاقد كثير من الموضوعيّة في طرحه، إذ لا يحتاج رأيه للمناقشة، حيث رفض أيّ قطيعة مع التّراث العربيّ كما رفض أيضا القطيعة مع الغرب.

يحسن التّنويه إلى أنّ النّاقدَين السابقين يتّفقان في مصدر نشأة القصّة القصيرة جدّا في الوطن العربيّ من حيث المبدأُ في كونها تمتد بجذورها إلى السّرد العربيّ الموغل في القدم،ناهيك عن تأثّرها بالسّرد الغربيّ. غير أنّهما يختلفان في مصدر ذلك التّأثر الغربي، فخلف إلياس يرجعه إلى أوربّا وفرنسا خاصّة.في حين إنّ جميل حمداوي يرجعه إلى أمريكا اللّاتينية.

ونحن وإن كنّا نقرّ بالسّبق الأمريكيّ اللّاتينيّ من حيث النشأة، فإنّنا نزعم من حيث التّأثّر العربيّ بورود الاحتمالين. فقد يكون تأثّرنا من أوربّا (ومن فرنسا بالخصوص) بحكم القرب الجغرافي والتّقارب اللّغوي. كما قد يكون التّأثّر قد تلقّفناه من أمريكا بفضل بعض الأدباء والمثقّفين الّذين هاجروا إلى هناك وظلّت علاقاتهم وطيدة بالحياة الأدبيّة والثّقافيّة في الوطن العربيّ.

أمّا حميد لحميداني فأوجز رأيه حول أصول القصّة القصيرة جدّا في ثلاث نقاط :

"- أصولها عربيّة أساسا(الخبر، الحكاية، النّادرة)

- منحدرة مباشرة من القصّة القصيرة والأقصوصة.

- لها علاقة مع التّأثيرات القصصيّة الغربيّة."(22).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اتّفق هذا النّاقد مع النّاقدين السّابقين في استطاعة القصّة القصيرة جدّا الجمع بين الأصول العربيّة القديمة وبين التّأثر الغربيّ. وهذا ما جعلنا نضمّه ضمن الموقف الثّالث. غير أنّنا لمسنا من كلامه حرصا شديدا على انبثاق القصّة القصيرة جدّا من رحم القصّة العربيّة القصيرة الّتي شهدت نضجا كبيرا.وهذا الكلام منطقيّ إلى أبعد الحدود وله مبرّراته.

الموقف الرابع:

خلال بحثنا في أثناء معظم ما كتب حول أصول جنس القصّة القصيرة جدّا في الوطن العربي. لم نجد باحثا غير أحمد جاسم الحسين قد تبنّى هذا الموقف وهو أنّ القصّة القصيرة جدّا قد برزت إلى الوجود في الوطن العربيّ بفضل التّطور الّذي حصل في جنس القصّة العربيّة القصيرة. وذلك بفضل بعض العوامل الّتي ساهمت في نشوئها والّتي جمعها هذا النّاقد في: "سرعة القصّة وإهمال الكتّاب والصّحافة والشّعور بالغربة والاغتراب والقمع والمنع"(23)

كنّا قد تطرّقنا فيما سبق أنّ النّاقد حميد لحميداني قد ذهب هذا المذهب؛ غير أنّه بدا بين النّاقدين فرق في أمر صلة القصّة القصيرة جدّا بالتّراث السّردي وبالأصل الغربيّ. فإذا كان حميد لحميداني يقرّ بخروج القصّة العربيّة القصيرة جدّا من معطف القصّة القصيرة والأقصوصة، فإنّه لا ينفي تأسيسها على الأصول السّردية العربيّة كالخبر والنّادرة. وفي الوقت نفسه لا يقطع صلتها بالسّرد القصصيّ الغربيّ وتأثّرها به.

أمّا النّاقد أحمد جاسم الحسين فإنّه سبق نظيره حميد لحميداني في الرّأي القائل بأنّ القصّة القصيرة جدّا جنس قد تولّد بفضل التّطوّر الّذي حدث للقصّة العربيّة القصيرة. غير أنّهما يختلفان في أن يكون هذا الوافد الجديد قد ظهر بفضل التّأثّر الغربيّ. فيقول أحمد جاسم الحسين في هذا الصدد: "ولعلّ وجود هذه النّصوص لهذا الكاتب أو ذاك لا تجعلنا ننسب هذا الجنس للآخر، لأنّ الجنس المعني(القصّة القصيرة جدّا) قد اكتسب شكلا وتقنيّة وبنية ودلالات عربيّة الطّابع. وهو منتوج مجتمع عربيّ(...).ولم تكتب القصّة القصيرة جدّا كغيرها من الأجناس تحت وطأة التّأثّر بالغرب،أو تقليده بل انطلاقا من همّ عربيّ، ورؤية عربيّة"(24).

كما أنّه أيضا يختلف معه في احتمال كون القصّة العربيّة القصيرة جدّا قد تأسّست تحت أنقاض الموروث القديم.

يمكن أن نخلص في الأخير وبعيدا عن الطّائفة الّتي إليها أنتسب يجب الاعتراف أنّه لا عيب في الاختلاف حول جذور القصّة العربيّة القصيرة جدّا. ولا ضير أن نعلن الانتساب إلى أحد المواقف الأربعة. فكلٌّ منها له الحقّ الكامل في الدّفاع عن رأيه والتّشبّث به. ولكنّ العيب الوحيد في رأينا هو عندما ينفي الباحث أن يكون ضمن السّرد القصصيّ القديم ما يشبه القصّة القصيرة جّدا الّتي يكتبها القصّاصون العرب اليوم. ونحن وجدنا ما يشبه ذلك في القصص القرآنيّ وفي الحديث النّبويّ الشّريف،مع اختلاف فقط في درجات التّشابه والتّقاطع.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لعلّ ما نريد البحث فيه هاهنا، هو مسألة نشأة القصّة العربيّة القصيرة جدّا، وعلاقتها بما خلّفه أجدادنا من تراث سردي ثرّ. الهدف من هذه الالتفاتة هو أن نزوّد القارئ بملمح حول بعض الجذور العربية الّتي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالقصّة القصيرة جدّا التي يكتبها المبدع العربي.

ليس بدعا أن يكون للقصّة القصيرة جدّا جذور في التّراث السّردي القديم، فلقد "رأينا العرب- منذ الجاهلية إلى اليوم - يولعون بالحكاية ويقبلون إقبالا شديدا على القصّ، ممارسين ومستمعين. لم يفعلوا ذلك مع نوع معيّن، بل تنوّعت الحكايات عندهم تنوّع حياتهم واهتماماتهم الوجدانية"(25.)

"واهتمام القرآن بالقصص في تثبيت العظة والعبرة أو في بثّ معاني الدّعوة الإسلاميّة في صدور العرب، دلالة على تذوّق العرب لهذا اللّون بل وتقديرهم له، وحبّهم ومدى تأثّرهم له"(26). فالعرب إذن عرفوا الفنّ القصصيّ واهتمّوا به. يقول محمد زغلول سلّام في هذا المضمار: "المزاج القصصيّ غير قاصر على شعب دون آخر من بني الإنسان، فالقصص تراث إنسان شاع في كل الأمم قديما وحديثا، وقد عرف العرب القصّة منذ أقدم العصور وخلّفوا لنا آثارا باقية تدلّنا على ما كان لديهم من القصص والأساطير"(27).

يمكن القول إذن، إنّ العرب ولعوا أيضا بالفنّ القصصيّ، "وذلك عكس المتداول بين النّاس بأنّ ولعهم كان حول الشّعر فقط"(28). حيث تزخر"مكتبتنا التّراثيّة العربيّة والإسلاميّة بكم هائل من الرّوائع والنّفائس والطّرائف واللّطائف والقصص والأمثال والحكم وغير ذلك، موزّعة ومنتشرة في عشرات، بل مئات الكتب والمجلّدات الضّخمة"(29).

بيد أنّنا نقول في المقابل إنّه"وإذا كانت كتب التّاريخ والرّوايات القديمة قد احتوت على ما يشبه من قريب أو بعيد ما يعرف باسم الفنّ القصصيّ في عصرنا الحديث فإنّنا لا نستطيع أن نقول إنّ تراثنا العربيّ قد عرف فنّ الرّواية أو القصّة الطّويلة أو القصيرة بمعناها الفنّيّ الّذي تعارف عليه أدباء أوربّا"(30)، سواء أكانت قصيرة أم قصيرة جدّا.

لا شكّ أنّه لا يختلف عاقلان حول استحالة وجود القصّة القصيرة جدّا بمفهومها المعاصر ضمن تراثنا القديم، لأنّ لكلّ عصر خصائصه وقواعده الّتي يسير عليها. غير أنّ ذلك لا يمنع من وجود بعض النّماذج القصصية القصيرة جدّا المبثوثة هنا وهناك، والّتي استطاعت بحقّ أن تفرض نفسها بأحقّيتها بأن تكون الأب الشّرعي للقصّة القصيرة جدّا. أمّا الرّافضون لما نقول فنحسبهم أنّهم لم يطّلعوا على كلّ تراثنا السردي العربي بحكم غنائه.

سنحاول إذن، أن نقصّ أثر ذلك حتى نصل إلى بعض النّماذج القديمة الّتي تحمل بعض ملامح القصّة القصيرة جدّا، بل قد تتقاطع معها في كثير من الخصائص.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1.القرآن الكريم

"يذكر بعض الدّارسين بأنّ القصص القرآنيّ الكريم يحتوي على أهمّ التّقنيات الفنيّة الّتي تستعملها القصّة الحديثة"(31). ولذلك فإنّه ليس من الغريب أن نجد بعض القصص القرآنيّ يتضمّن بعض خصائص القصّة القصيرة جدّا، ويتقاطع معها في كثير من النّقاط.

لاكتشاف ذلك حاولنا تطبيق أركان القصّة القصيرة جدّا- الّتي تحدّث عنها النّقّاد- على القصّة القرآنية، فوجدنا أنّ معظمها موجود.

قال الله تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتاه اللهُ الْمُلْكَ، إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ"(32).

أ.القصصيّة:

- **الحدث:** نمرود ملك بابل يحاجج إبراهيم.

- **الشّخصيات:** عددها محدود لم يتعد اثنتين، وهما: إبراهيم ونمرود، مع عدم الإسهاب في وصفهما، ماعدا وصف نمرود بالكافر لأنّ ذلك يفيد القصّة.

- **الزّمان والمكان:** جاء هذان العنصران هنا مبهمين، لأنّهما لا يفيدان هذه القصّة القرآنيّة ولا يضيفان إليها. وهذا ما يتناسب مع سمات القصّة القصيرة جدّا. أمّا الزّمن الّذي استغرقته أحداث هذه القصّة فإنّه محدود جدّا؛وهو بقدر ما يسع لمناظرة من اثنين بجمل معدودات. أمّا المكان المؤطّر لها فهو أيضا كان ضيّقا، وهو ما يكفي فقط لاحتضان تلك المناظرة.

- **الحوار:** جاء الحوار بين الشّخصيتين قصيرا جدّا.

ب.التّكثيف:

اعتمدت القصّة على الاقتصاد اللّغويّ الّذي أفضى إلى الحجم القصير جدّا. كحذفها لسؤال نمرود واقتصارها على جواب إبراهيم(إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ)، وكأنّ نمرود " طلب من إبراهيم دليلا على وجود الرّب الّذي يدعو إليه"(33). ولكنّ القصّة أغفلت هذا فأسهم ذاك في تكثيفها فلم تتعد الثّلاثين كلمة.

ج.فعليّة الجملة:

على الرّغم من قصر حجم هذه القصّة فإنّ عدد أفعالها كان أربعة عشر. حيث لم توظّف هذه القصّة إلا ثلاث جمل اسمية، ومع ذلك فإنّ خبرها في مناسبتين قد جاء جملة فعلية، وخبر الجملة الأخرى جاء اسما موصولا متبوعا بصلة الموصول جملة فعلية. معنى ذلك أن القصّة هذه اعتمدت على الجملة الفعلية اعتمادا كليا وهذا ما يتناسب مع القصة القصيرة جدا.

د.المفارقة:

شهدت هذه القصّة نهاية مفاجئة، تدهش القارئ لأنّه كان ينتظر من النّمرود أن يواصل حجاجه لإبراهيم، كأن يقول مثلا: (اطلب من ربّك أن يأتي بالشّمس من المغرب)، غير أنّه لم يقل ذلك – مخافة أن يدعو إبراهيم ربه فيستجب له – وبهت أي "انقطع وسكت متحيّرا"(34).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ه.وحدة الموضوع:

تبدو هذه القصّة القرآنيّة خاضعة للوحدة الموضوعيّة وهي طغيان النّمرود وادّعاؤه الرّبوبيّة. ونحن نعلم أن القصّة القصيرة جدّا من سماتها الوحدة الموضوعيّة حيث لا تَقبَل تعدّد الموضوعات.

2.القصص النّبويّ:

يبدو أنّ "محمّدا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قد أدرك بحسّه النّقيّ وحكمته النّبوية أهمّيّة القصص وأثرها في تثبيت المفاهيم الإسلاميّة في عقول المؤمنين وقلوبهم، فقصّ قصصا كان على قصره وقلّة تفاصيله متمتّعا بأغلب خصائص وسمات القصّة القصيرة المعاصرة"(35). من تلك القصص ما هو أقرب إلى القصّة القصيرة جدّا بحكم التّكثيف الشّديد الّذي ظهرت به.

عن أبي هريرة رضي الله عنه،عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: "بينما كلب يطيف بركيّة كاد يقتله العطش، إذ رأته بغيّ من بغايا بني إسرائيل، فنزعت مَوْقَها فسقته، فغُفِرَ لها به"(36).

نستهلّ حديثنا بعنصر القصصيّة، على الرّغم من غياب الحوار، فإنّه لا يختلف اثنان على قصصيّة هذا السّرد النّبويّ الشّريف، الّذي اتّسمت أحداثه بضيق مجالها الزّمنيّ لأنّها قد تجرى خلال دقائق فقط. إضافة إلى محدوديّة المكان الّذي جرت عليه تلك الأحداث، حيث يفهم من سياق الكلام أنّه قد لا يتعدّى – والله أعلم – بضعة أمتار مرّبعة.

أمّا التّكثيف في هذه القصّة فظاهر بيّن، حيث اعتمد فيها الإيجاز، إذ"هو مفخرة العرب"(37)، لذلك جاء النّصّ قصيرا جدّا لا تتعدى كلماته العشرين.

كما اعتمدت هذه القصّة على فعليّة الجملة، حيث لا نحصي فيها من الجمل الاسميّة إلّا واحدة، ولم يكن خبرها إلا جملة فعليّة.

أما المفارقة، فجليّة في قوله صلّى الله عليه وسلم(فغفر لها به)، إذ كانت النهاية مدهشة للمتلقّي، إذ لا ينتظر أن يُغفر لبغيّ في كلب سقته.

وأخيرا، فإن هذه القصّة عالجت موضوعا واحدا، وهو إمكانيّة أن يغفر الله عزّوجلّ للعبد ذنوبه مهما عظمت،بفضل صالح أعماله وإن صغرت.

3.السّرد العربي:

الظّاهر أنّ النّثر العربيّ القديم نوعان، نثر وصفيّ يهدف إلى إيصال معرفة إلى القارئ. ويتمثّل ذلك فيما خلفّه كبار الكتاب كالجاحظ مثلا. ونثر تخيّلي يهدف إلى إثارة الانفعال النّفسي لدى المتلقّي لأنّ غايته أدبيّة بالدّرجة الأولى. ويتمثّل في كلّ ما خلّفه المبدعون من سرد متنوّع.

من بين ما خلّفه العرب من سرد ألفينا بعضه يتّسم بخصوصية الحجم القصير جدّا كالطّرفة والخبر والنّادرة وغيرها كثير. وبعد إمعاننا النّظر في عشرات النّماذج منها، وجدناها لا تختلف كثيرا عن القصّة القصيرة جدا. إذ إنّها تبدو مشتركة معها في كثير من الخصائص الفنّيّة.

لتبيان ذلك اخترنا حكايتين من مصدرين مختلفين، الأولى بلسان الإنسان والأخرى بلسان الحيوان.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"وقف شيخ بباب المسجد والمؤذّن يقيم الصّلاة، فدخل فرأى المؤذّن هيبته وشيبته، فسأله أن يصلّي بهم. فامتنع، فتقدم المؤذّن وصلّى بهم، فلمّا فرغ أقبل على الشّيخ فقال له: ما منعك أن تصلّي بنا فتكسب أجرا؟ فقال: أنا وحقّك إذ كنت على غير طهارة لم أصلّ إماما"(38).

أ.حضور **القصصيّة** مع محدوديّة الأحداث والشّخصيات والزّمن والمكان والحوار.

ب.**التّكثيف:** لا تتعدّى القصة خمسين كلمة.

ج.**فعليّة الجملة:** غلبة الجمل الفعلية وسيطرتها على النّصّ حيث أكثر من ثلث كلمات القصّة أفعال.

د.**المفارقة:** المفاجأة الّتي أحدثها جواب الشّيخ ودهشة المؤذّن والقارئ على حدّ سواء، وذلك باكتشافهما بأنّ ذاك الشيخ الوقور يصلّي دون وضوء.

هـ.**وحدة الموضوع:** وهو هنا يعالج قضيّة واحدة وهي الانخداع بالمظاهر، إذ ذلك الشّيخ وعلى الرّغم من مظهره الّذي ينبئ ربّما بعلمه أو صلاحه، فإنّه كان إذا أراد أن يصلّي لا يتوضّأ.

"زعموا أنّ غرابا رأى حجلة تدرج وتمشي، فأعجبته مشيتها، وطمع أن يتعلّمها. فراض على ذلك نفسه، فلم يقدر على أحكامها، وأيس منها. وأراد أن يعود إلى مشيته الّتي كان عليها: فإذا هو قد اختلط وتخلّع في مشيته، وصار أقبح الطّير مشيا"(39).

أ.القصصيّة

- **الحدث:** قصير جدا.
- **المدّة الزمنيّة:** بضع عشرات الدّقائق.
- **المكان:** ضيّق يسمح لطائر كالغراب أن يتدرب على المشي.

ب.**المفارقة:** عندما ضيّع الغراب مشيته دون أن يتعلّم مشية الحمامة.

ج.**التّكثيف:** زهاء أربعين كلمة.

د.**فعليّة الجملة:** أغلب الجمل فعليّة.

هـ.**وحدة الفكرة:**عالجت القصّة فكرة واحدة وهي طمع الإنسان فيما عند غيره.

خاتمة:

عرفنا أن النّقاد العرب قد اختلفوا حول جذور القصّة العربية القصيرة جدّا. ولكنّنا وصلنا في نهاية هذا المقال إلى نتيجة مفادها أنّ للقصّة القصيرة جدّا جذورا في سردنا القديم سواء أكان ذلك في القرآن الكريم أم في الحديث النبويّ الشّريف أم فيما كتبه المبدع العربيّ من سرد قصير جدّا بمختلف أنواعه.

ويبدو لنا أن تلك العودة إلى الماضي لا يمكن أن ينكرها إلا جاهل، إذ إنّه للأسف أضحى النّاقد العربي يحكم مسبقا على بطلان أيّ رجوع للتّراث السّردي. ولذلك تراه يضع قواعدَ وشروطا فنّية تعجيزية للحكم على أيّ سرد قصصي قديم في علاقته بما ينتجه المبدع في العصر الحديث.

ثم إنّ اعترافنا بوجود بذور القصّة القصيرة جدّا في تراثنا السّردي القديم قد لا ينفي مطلقا الأصول الغربية لهذا الفنّ. أي ما نودّ قوله هو أنّ للنّاقد العربيّ كلّ الحقّ في أن يُرجع أصول القصّة القصيرة جدّا إلى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الغرب، بشرط أن لا ينكر وجودها في الأدب العربيّ القديم. وبعبارة أخرى، نريده أن يقول مثلا: نعم أعترف بوجودها عند العرب قديما ولكن أرفض أن يكون المبدع العربيّ قد اِلتفت إلى ذلك في إبداعه، بل نهل تقنياتها من السّرد الغربي. فثمّة نحترم رأيه لأنّه يعتمد على الموضوعية في طرحه. أمّا أن نجد بعض النّقاد العرب من ينكر وجود حتّى ما يشبه القصّة القصيرة جدّا في السّرد العربي القديم فهذا تعسّف كبير في حقّ تراثنا العربي الزّاخر.

الهوامش:

(1) يوسف حطيني، القصّة القصيرة جدا بين النّظرية والتّطبيق، مطبعة اليازجي، دمشق، سوريّة، ط1، 2004. ص:11.

(2) المرجع نفسه، ص:12.

(3) المرجع نفسه، ص:12.

(4) محمد رمصيص، قضايا القص الوامض بالمغرب(البدايات والامتداد)، منشورات دار الإيمان، الرّباط، المغرب، 2014، ص:14.

(5) المرجع نفسه، ص:243.

(6) حسام محمد علم، دراسات في النثر العباسي، ج:2، من التاريخ الأدبي، كلية الدّراسات الإسلامية والعربية، جامعة الأزهر،2006، ص:3

(7) محمد يوب، القصّة القصيرة جدّا (الخروج عن الإطار)، كتاب الرّافد، ع96، دائرة الثّقافة والإعلام، يونيو 2015. ص:41 و42.

(8) المرجع نفسه، ص:43.

(9) المرجع نفسه، ص:45.

(10) عبد الملك مرتاض، فنّ المقامات في الأدب العربيّ، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 1980، ص:545 و546.

(11) المرجع نفسه، ص:457

(12) محمد يوب، القصة القصيرة جدا (الخروج عن الإطار)، ص:197.

(13) انظر: محمد يوب، القصة القصيرة جدا (الخروج عن الإطار)، ص:48.

(14)جاسم خلف إلياس، شعرية القصة القصيرة جدا، دار نينوى، العراق، ط1، 2010، ص:200.

(15) المرجع نفسه، ص: 58

(16) المرجع نفسه، ص: 61

(17) المرجع نفسه، ص:62 و63.

(18) المرجع نفسه، ص: 56.

(19) جميل حمداوي، القصة القصيرة جدا والمشروع النظري الجديد(المقاربة الميكروسردية)، سلسلة المعارف، دار نشر المعرفة، المغرب، 2014، ص:62.

(20) جميل حمداوي، دراسات في القصّة القصيرة جدّا، منشورات المعارف، المغرب، 2014، ص:7و8.

(21) جميل حمداوي، القصة القصيرة جدا والمشروع النظري الجديد(المقاربة الميكروسردية)، ص:62.

(22) حميد لحميداني، نحو نظرية منتحة للقصة القصيرة جدا(قضايا ونماذج تحليلية)، آنفو برانت، فاس، المغرب، ط1، 2012، ص:102.

(23) انظر: أحمد جاسم الحسين، القصّة القصيرة جدّا(مقاربة تحليليّة)، ص: 119.

(24) أحمد جاسم الحسين، القصّة القصيرة جدّا(مقاربة تحليليّة)، ص: 124.

(25) حسن حصار، في النثر العربي، مكتبة الأسرة، مصر، 2000، ص: 114.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(26) محمّد زغلول سلّام، القصّة في الأدب السّوداني الحديث، معهد البحوث والدّراسات العربيّة، مصر، 1970، ص:53.

(27) المرجع نفسه، ص: 52.

(28) بلحيا الطاهر، الرواية العربية، (من الميثولوجيا إلى ما بعد الحداثة)، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر،ط1، 2017، ص: 53.

(29) خالد عبد الله الكرمي، جامع نوادر وأساطير وأمثال العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص:3.

(30) محمد مندور، الأدب وفنونه، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط5، 2006، ص:7.

(31) بلحيا الطاهر، الرواية العربية، (من الميثولوجيا إلى ما بعد الحداثة)، ص: 62.

(32) سورة البقرة، الآية: 253

(33) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، مج1، تح: سامي بن محمّد السّلامة، دار طيبة، الرّياض، السّعودية، ط2، 1991، ص: 686.

(34) ابن منظور، لسان العرب، مج2، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص:13.

(35) محمد رشدي عبيد، قصة يوسف عليه السلام في القرآن، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1 ،2003، ص:19.

(36) البخاري، صحيح البخاري، دار ابن كثير، بيروت، لبنان،ط1،2002، ص:859.

(37) علي حبّ الله، المقدّمة في نقد النّثر العربيّ، دار الهدى، لبنان، ط1،2001، ص:134.

(38) ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، تح: عبد الأمير مهنا، دار الفكر، لبنان،1990، ص: 176.

(39) بيدبا، كليلة ودمنة، تر: ابن المقفع،مطبعة الأميرية، القاهرة،1937، ص: 300.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com